بسم الله الرحمن الرحيم

﴿..... وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ
أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ
فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ .....﴾

(الفتح : ٢٩)

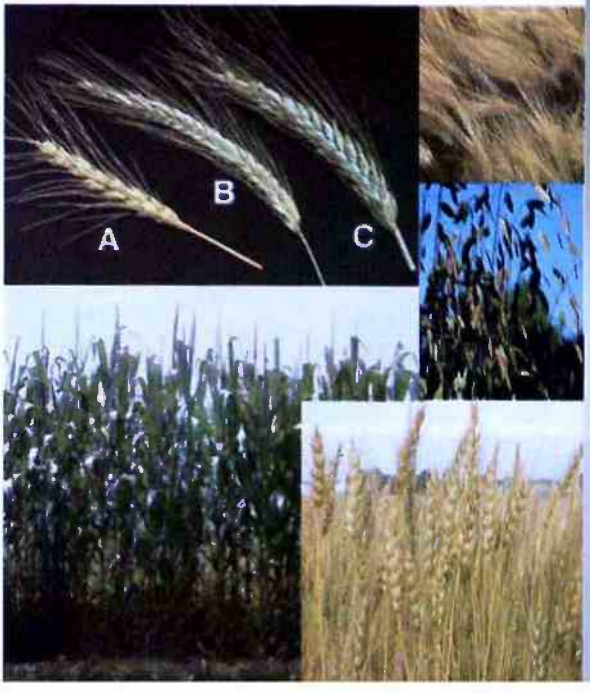

هذا النص القرآنى المعجز جاء فى ختام سورة الفتح وهى سورة مدنية، وآياتها تسع وعشرون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بذكر ذلك الفتح المبين الذى يسره الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ ألا وهو **صلح الحديبية** الذى رأى فيه غالبية المسلمين تنازلاً لكفار مكة حتى قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ لرسول الله ﷺ : . . . . ألست برسول الله؟ قال: **بلى !!** قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: **بلى !!** قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: **بلى !!** فقال عمر: فعلامَ نعطى الدنية فى ديننا؟ فرد رسول الله ﷺ عليه قائلا: «**أنا عبدالله ورسوله،لن أخالف أمره، ولن يضيعنى**».

وحينما نزلت هذه السورة المباركة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ . . قال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : أى رسول الله أو فتح هو؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**إى، والذى نفس محمد بيده إنه لفتح**».

وذلك لأن صلح الحديبية كان مناسبة توفر بها للمسلمين الاجتماع بعدد كبير من القبائل العربية، ودعوتهم إلى الإسلام، وتبيان فضائل هذا الدين السماوى الخاتم القائم على التوحيد الخالص لله الخالق ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، وتنزيهه ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله، وعبادته بما أمر، وطاعته فى حسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، بعمارتها وإقامة عدل الله فيها، كما تهيأ للمسلمين بهذا الصلح فرصة لكشف تعصب مشركى قريش انطلاقًا من حميتهم الجاهلية، فى صد رسول الله ﷺ وجميع من أسلم معه عن المسجد الحرام على مدى ست سنوات متواصلة من تاريخ هجرته الشريفة إلى المدينة المنورة وحتى يوم الحديبية، وتحريم الدخول إلى مكة المكرمة عليهم، تعنتًا، واستفزازًا، ومخالفة للتقاليد المتبعة فى زمانهم، حتى فى

الأشهر الحرم التى ما انفك العرب عن تعظيمها فى أزمنة جاهليتهم وشركهم بالله. وهنا اتضح لكل أهل الجزيرة العربية سماحة الإسلام، ونبل أتباعه، وتعنت الكفر وأهله فى جاهلية عمياء.

وفى السنة السادسة من الهجرة رأى رسول الله ﷺ فيما يرى النائم أنه يدخل الكعبة المشرفة ومعه جمع من المسلمين محلقين رءوسهم ومقصرين، لا يخافون. . ، ورؤيا الأنبياء حق، فخرج فى شهر ذى القعدة من نفس السنة معتمرا، لا يريد قتالا مع المشركين، فى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، واستنفر من حوله من أهل البادية ليخرجوا معه حتى وصل إلى موقع يعرف باسم ثنية المرار فبركت فيه ناقته ﷺ فقال الناس: خلأت الناقة ـ أى حرنت ـ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**». وفى رواية للبخارى جاء قوله ﷺ: «**والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها**»[1]، ثم واصل المصطفى ﷺ ومن معه المسير فى طريقهم حتى وصلوا إلى الحديبية، ولكن قريشا أبت السماح لهم بدخول مكة عليهم، فبعث إليهم رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عثمان بن عفان ـ رضى الله تبارك وتعالى عنه وأرضاه ـ برسالة منه أنه لا يريد قتالاً ولكن يريد أداء العمرة، فاعتقلته قريش بعد أن بلغ رسالة الرسول الكريم، وبعد أن قال له زعماء قريش: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فرد عليهم قائلاً: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، وشاع أن عثمان بن عفان قد قتل، فقال المصطفى ﷺ: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**»[2]، ثم دعا الناس إلى البيعة تحت الشجرة فكانت البيعة التى عرفت باسم **بيعة الرضوان**. ثم جاء ما يؤكد أن إشاعة مقتل عثمان بن عفان باطلة، واصطلح المسلمون والمشركون على وضع الحرب، واشترطوا شروطا لذلك فى وثيقة سميت باسم وثيقة صلح الحديبية، تنازل فيها رسول الله ﷺ عن عدد من حقوقه حقنا لدماء الناس، ويقينا منه أن الله ـ تعالى ـ سوف يجعل من وراء هذا الصلح فتحا قريبا، واشترط الصلح على أن من أراد

(١) [صحيح] البخارى (٢٧٣١)، وأبو داود (٢٦٧٥)، وأحمد (٤/ ٣٤٣).
(٢) [صحيح] البخارى (٢٧٣١، و٢٧٣٢).

الدخول فى حلف رسول الله ﷺ من قبائل العرب فهو آمن، ومن أراد الدخول فى حلف قريش فهو آمن، فدخلت قبيلة خزاعة فى حلف المصطفى عليه الصلاة والسلام، ودخلت قبيلة بكر فى حلف مشركى قريش. وقد احترم المسلمون نصوص صلح الحديبية، والتزموا بجميع بنوده، ولكن قريشا نقضته بنصرها قبيلة بكر الموالية لها على قبيلة خزاعة الموالية لرسول الله ﷺ مما دعاه ﷺ إلى اتخاذ قراره التاريخى بفتح مكة المكرمة، فتحرك جيش المسلمين فى حدود الثامن إلى العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة من المدينة المنورة قاصدا مكة المكرمة، وقد بلغ عدد جنوده عشرة آلاف مقاتل، وأمر رسول الله ﷺ جنده ألا يقاتلوا أو يسفكوا دما إلا إذا أكرهوا على ذلك إكراها، وذلك توقيرًا لحرمة مكة المكرمة. ودخل الرسول الخاتم مكة المكرمة ومعه لواء أبيض، وعلى رأسه الشريف عمامة سوداء، وهو راكب على ناقته القصواء، يقرأ سورة الفتح، خافض الرأس تواضعا لله تعالى وشكرا له سبحانه أن فتح الله عليه أم القرى، مهبط الوحى، وأرض البيت الحرام ليدخلها والمسلمون معه آمنين مطمئنين، لا يخافون، تماما كما جاء فى رؤياه ﷺ، فطهروا البيت من الأصنام، وطافوا به، والرسول ﷺ يردد قوله الشريف: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له،صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده**»[1] ثم تلا الآية الكريمة: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكانت سورة الفتح قد نزلت فى السنة السادسة من الهجرة، عقب صلح الحديبية مباشرة، ورسول الله ﷺ مع صحابته الكرام عائدا من الحديبية إلى المدينة المنورة، ولذلك تناولت هذه السورة الكريمة تفاصيل هذا الصلح بكل ملابساته. ويروى عن رسول الله ﷺ قوله صبيحة نزول هذه السورة المباركة: «**نزل علىّ البارحة سورة هى أحب إلىّ من الدنيا وما فيها: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾**» رواه كل من البخارى والنسائى والترمذى[2].

(١) مسلم (٤٩٠٣)، البخارى (٣٨٠٥).
(٢) [صحيح] البخارى (٤٨٣٣)، والترمذى (٣٢٦٢).

عرض موجز لسورة الفتح

بدأت سورة الفتح بتوجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مطمئنة نفسه الشريفة على صدق ما ألهمه ربه ـ تبارك وتعالى ـ وعلى حتمية تحقيقه فى أقرب وقت، وإن رأى جميع الحضور تقريبًا ضخامة ما قدموا من تنازلات لمشركى قريش، مع استفزازاتهم العديدة للمسلمين، ولكن اليقين الذى ملأ قلب المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بحتمية تحقيق وعد ربه جعله لا يستفز، برغم كل التجاوزات التى اقترفها مشركو قريش، وكل الاشتراطات التى اشترطوها انطلاقًا من استكبارهم فى الأرض، وحميتهم الجاهلية، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فى مطلع سورة الفتح:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ ـ ٣].

ثم تستمر الآيات فى تأكيد حقيقة أن الله ـ تعالى ـ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا على إيمانهم، ويبشرهم بالمغفرة والثواب، وبالعون بجنود من عنده، وأن لله جنود السماوات والأرض، وما يعلم جنود ربك إلا هو، وأنه ـ تعالى ـ هو العليم الحكيم، وأنه هو العزيز الحليم. وبعد ذلك تتحدث الآيات عن جزاء كل من المؤمنين والمؤمنات، وعما أعد الله ـ سبحانه ـ من عذاب وعقاب لكل من المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات الذين يعبدون مع الله إلها آخر، مؤكدة أن الله تعالى قد أنزل فى قلوب عباده المؤمنين الطمأنينة إلى الحق ليزدادوا إيمانا، وأن جزاء ذلك جنات النعيم، بعد التكفير عن سيئاتهم، بينما جزاء النفاق والشرك وسوء الظن بالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو صب غضبه ولعناته عليهم، ثم عذاب جهنم وساءت مصيرًا.

ومرة أخرى تعاود السورة الكريمة توجيه الخطاب إلى النبى الخاتم والرسول الخاتم ﷺ وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ له:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨].

أى شاهدا على أمته وعلى الخلائق أجمعين، ومبشرا للمؤمنين، ونذيرا

للكافرين، والمشركين، والمنافقين، وتنقل الآيات الخطاب مباشرة إلى المؤمنين بقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ [الفتح : ٩].

ويرجع الخطاب مرة أخرى إلى رسول الله ﷺ مشيدا ببيعة الرضوان، ومبشرا الموفين بها بعظيم الأجر من الله، ومحذرا من نقضها؛ لأن الآيات تعتبرها بيعة لله تعالى الذى يقول فيها عز من قائل :

﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ﴾ [الفتح : ١٠].

وتنعى الآيات فى سورة الفتح بعد ذلك على المنافقين من الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، واعتذروا بأعذار كاذبة، ظنا منهم بأنه لن يكون من المنتصرين، وعلى الرغم من ذلك فقد جاءوا يطلبون منه ﷺ الاستغفار لهم، ويرجون نصيبا من الغنائم التى حققها، والله خبير بما يعملون، وقد أعد نار جهنم للكافرين والمشركين والمنافقين الذين لا يؤمنون بالله ورسوله، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما ﴾ [الفتح : ١٤].

وتخاطب الآيات القرآنية الكريمة فى سورة الفتح هؤلاء المخلفين بأنهم سيدعون إلى الجهاد فى سبيل الله مرة أخرى فإن تخلفوا فسوف يعذبهم الله عذابا أليما، وفى ذلك يوجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بقوله العزيز :

﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما ﴾ [الفتح : ١٦]

ثم تقرر الآيات أنه لا حرج على المعذورين من أمثال كل من الأعمى، والأعرج، والمريض إذا تخلفوا عن الجهاد فى سبيل الله فتقول:

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧]

وبعد ذلك أثنت الآيات على المؤمنين من أهل بيعة الرضوان، مؤكدة أن الله ـ تعالى ـ قد رضى عنهم، وأنزل السكينة على قلوبهم، وتجلى عليهم بالذود عنهم، وتثبيته إياهم، وبشرياته لهم بفتح قريب لمكة المكرمة، وبالفىء عليهم بمغانم كثيرة يأخذونها لأنه هو العزيز الحكيم. ومن هذه المغانم كف أيدى الكافرين عنهم، وجعل ذلك آية لهم، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم والله ـ سبحانه وتعالى ـ على كل شىء قدير.

وتؤكد الآيات أن الكافرين لن يجدوا لهم وليّا ولا نصيراً إذا قاتلوا المؤمنين، وهذه هى سنة من سنن الله تعالى التى أجراها على الأمم من قبل، وقرر تحقيقها إلى قيام الساعة، وسنن الله لا تتبدل ولا تتغير أبدا إلا بأمره. وقد تحققت بشريات الله للمؤمنين فى سورة الفتح بدخولهم مكة المكرمة دون قتال، وبسيادة الإسلام للجزيرة العربية كلها بعد ذلك، وهيمنة هذا الدين الخاتم على الدين كله بأمر الله وتدبيره، وهو تكريم من الله تعالى لرسوله الخاتم ﷺ، وللذين أسلموا معه واتبعوه على صراط مستقيم، وهو سبحانه البصير بأعمال العباد، المطلع على قلوبهم، والعارف بنواياهم. وكان فتح مكة فى نفس الوقت انتقامًا من مشركى قريش الذين صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام يوم الحديبية، أى قبل ذلك بعامين اثنين، وهنا ينطق التنزيل بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٥ ـ ٢٦].

والآيات تتحدث عن حمية الجاهلية التى دفعت كفار ومشركى قريش إلى منع رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين من دخول مكة المكرمة لأداء العمرة، وتصف كيف غضب المؤمنون لذلك وثارت ثائرتهم لولا أن الله تعالى قد أنزل سكينته على رسوله ﷺ وعلى الذين آمنوا معه، وألزمهم كلمة التقوى. وقد صدق الله رؤيا رسوله ﷺ فقال عز من قائل :

﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ﴾ [الفتح : ٢٧]

وتختتم سورة الفتح بالتأكيد على نبوة ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ والتى أنكرها كثير من الكفار والمشركين والمنافقين عبر التاريخ، وسوف يظل الضالون من البشر ينكرونها إلى يوم الدين، ولكن يؤكدها الله ـ تعالى ـ بشهادة منه ـ سبحانه ـ وبقوله وهو أحكم القائلين :

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ [الفتح : ٢٨].

ويؤكد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ شهادته الإلهية بأنه ـ سبحانه ـ قد أنزل صفة خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ وصفة الذين آمنوا معه فيما أنزل من كتب ـ ومنها كلّ من التوراة والإنجيل ـ فقال عز من قائل :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ [الفتح : ٢٩]

من الإشارات الكونية فى سورة الفتح

يدور المحور الرئيسى لسورة الفتح حول صلح الحديبية بتفاصيله، وملابساته، والدروس المستفادة منه التى يجب على المسلمين فى كل عصر وجيل أن يتعلموها، وعلى الرغم من ذلك فقد جاء فى هذه السورة المباركة عدد من حقائق الوجود ومن الإشارات الكونية التى يمكن سردها فى النقاط التالية :

(١) من حقائق الوجود ـ أن لله جنود السماوات والأرض ـ وجاءت الإشارة إلى هذه الحقيقة مرتين فى سورة الفتح : فى الآيتين الرابعة والسابعة، وأن من جنود السماوات والأرض الملائكة، والصالحون من الإنس والجن، والظواهر الكونية المختلفة، من مثل مختلف حركات كلّ من الأرض وأجرام السماء، ومنها الهزات الأرضية، والثورات البركانية، والعواصف والأعاصير الهوائية والبحرية، وغيرها. والرجم بالنيازك والشهب، وتبادل كلّ من الليل والنهار، وتعاقب الفصول، وحدوث الرعد والبرق، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وهطول الأمطار، وجريان الماء وخزنه.

وهذه الظواهر الطبيعية كلها من جند الله، وفهم العلماء لميكانيكية حدوثها لا يخرجها عن هذا الإطار أبدا، فالله تعالى هو الذى يسخرها عقابا للعاصين، وابتلاء للصالحين، وعبرة للناجين.

(٢) ومن الحقائق المطلقة أن لله ملك السماوات والأرض، وقد جاءت الإشارة إلى هذه الحقيقة فى الآية الرابعة عشرة من سورة الفتح، وفى عشرات الآيات القرآنية الأخرى، وذلك لأنه لا يمكن لعاقل أن يتصور هذا الكون بغير خالق، له من طلاقة القدرة وكمال العلم والحكمة ما مكنه من إبداع هذا الكون على غير مثال، فالكون المادى لا يمكن أن يكون قد أوجد ذاته بنفسه، أو أن يكون قد وجد بمحض الصدفة؛ لأنه محكوم بقدر هائل من القوانين والسنن التى لا تتبدل ولا تتغير، والصدفة أعجز من تحقيق ذلك. ومن هنا فإن وجود خالق عظيم للكون، لا شريك له فى ملكه، ولا منازع له فى سلطانه، ولا شبيه له من خلقه. يحكم هذا الكون ولا يحكمه شىء من خلقه، وهو خالق كل شىء، فلا يحدّه أى من المكان أو

الزمان، ولا يشكله أيٌّ من المادة أو الطاقة، وليس كمثله شيء من خلقه. وقد أصبح التسليم بهذه الحقيقة ضرورة حتمية ومنطقية ينادى بها كل ذى بصيرة فى الكون كله.

(٣) أن سنن الله فى الكون ثابتة لا تتبدل ولا تتحول ولا تتغير إلا بإذنه وحده ـ سبحانه وتعالى ـ وقد أشارت سورة الفتح إلى هذه الحقيقة فى الآية الثالثة والعشرين بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح: ٢٣].

(٤) الإشارة فيما بقى من ذكريات من التوراة والإنجيل إلى شيء من صفات النبى الخاتم والرسول الخاتم ﷺ ومن صفات الذين آمنوا معه بتشبيه علمى دقيق لا يقدر عليه إلا رب العالمين. ومن ذلك تشبيه قلة عدد المسلمين حول رسول الله ﷺ حين بدأ بدعوته المباركة ثم تزايدت أعدادهم بالتدريج حول هذه الرسالة السماوية الخاتمة بإحدى طرق التكاثر فى النبات وهو التكاثر بالأشطاء (أى البراعم التى تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق). وعملية التكاثر بالأشطاء لم تعرف فى مجال علم النبات إلا فى القرن العشرين، والتشبيه بها فى كتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة، على نبى أمى ﷺ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفى أرض صحراوية قاحلة له من الدلالات ما له عند كل ذى عقل، وبصيرة ونظر.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الأخيرة فقط وهى التكاثر فى بعض النباتات بالأشطاء، وقبل الدخول فى هذه القضية العلمية البحتة لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح هذا الجزء من الآية الأخيرة فى سورة الفتح.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا

يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ [الفتح : ٢٩]

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره : «فإن هذه أمة ـ أى أمة الإسلام ـ معظمة فى الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم فى الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا : ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ ، ثم قال : ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ﴾ أى فراخه ﴿ فآزره ﴾ أى شده ﴿ فاستغلظ ﴾ أى شب وطال ﴿ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ﴾ أى فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، آزروه وأيدوه ونصروه ، فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ . . . . » .

وجاء فى بقية التفاسير ـ من مثل الجلالين ، الظلال ، صفوة البيان ، المنتخب ، صفوة التفاسير ـ كلام مشابه لا أرى ضرورة لإعادته .

من الدلالات اللغوية للنص الكريم

تشير الآية الكريمة التى نحن بصددها إلى أن مثل رسول الله ﷺ وصحابته الكرام كما جاء فيما بقى من ذكريات عن الإنجيل الذى أنزله الله تعالى على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ كبشارة سابقة ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين كان نصه :

﴿ . . . كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه . . . ﴾ .

وبالنسبة لتعبير (الشطأ) فإنه يقال (شطأ) الزرع ، و (أشطأ) إذا أخرج سيقانًا إضافية تشبهه تماما من العقد الموجودة على قاعدة ساقه ، بينما فرع الشجرة يختلف عن كل من الأشطاء وسيقان النباتات ؛ لأنه يخرج من أية منطقة على الساق .

(وشطء) الزرع هو فرخ الزرع أى ما خرج منه ، وامتد فى شاطئيه (أى على

جانبيه)، وجمع الشطء (أشطاء) و(شطوء)؛ والشطء والأشطاء غير الفسيلة والفسائل، فبينما الشطء يقوى النبتة الأصلية فإن الفسيلة إذا لم ترفع عن الشجرة الأصلية فإنها تضعفها.

(فآزره) أى أن النبات الأصلى يقوم بإمداد الشطء بالغذاء اللازم لنموه فقوى ذلك الشطء ودعم النبتة الأصلية من قاعدتها، كما يقال (آزرت) البناء (بالمد والقصر) أى قويت أسافله. وقد ثبت علميا أن الشطء عند خروجه من الأصل (الأم) فإنه يعتمد اعتمادا كليا فى تغذيته عليه حتى تتكون عليه ثلاث أوراق خضرية، وأربعة أو خمسة جذور فيبدأ فى الاعتماد فى تغذيته على ذاته.

(فاستغلظ) أى تحول من الدقة إلى الغلظة، وذلك بتقوية جدر خلاياه بإفراز كميات كبيرة من كل من مادتى السيليولوز واللجنين، وبظهور عدد من العقد المغطاة بأغماد الأوراق. ﴿فاستوى على سُوقه﴾ أى فاستقام على أصوله، و﴿سُوقه﴾ هنا جمع (ساق)، وهذه المرحلة - مرحلة الاستواء على السوق - تأتى بعد مرحلة الاستغلاظ حيث تبدأ الخلايا فى الانقسام كى تستطيل المنطقة بين عقدة والتى تليها وتعرف بالسلامية، وتظل كل سلامية تدفع بالتى تليها حتى يتم النمو فتستوى السنابل على السوق عندما تصل السوق إلى نهاية مراحل نموها.

أما فسائل النخل ــ جمع فسيلة - فهى نوعان: **الأول** منهما ينمو على ارتفاع معين من جذع النخلة وليس له مجموع جذرى خاص به، ويعرف فى العامية باسم - الراكوب - والثانى ينمو من قاعدة النخلة، ويحتوى على جذور خاصة به، ويفصل عن النخلة لاستخدامه فى الإكثار من نوعها بزراعته فى مكان آخر.

من الدلالات العلمية للنص الكريم

النص القرآنى الكريم الذى نحن بصدده يشير إلى حقيقة من حقائق علم النبات لم تعرف إلا مؤخرا، وهى حقيقة التكاثر فى بعض النباتات بالأشطاء، أى البراعم التى تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق، كما يتم فى العديد من النباتات الاقتصادية المهمة مثل القمح والشعير والأرز والذرة الرفيعة، وقصب السكر،

وغيرها من نباتات **العائلة النجيلية**. وتتميز نباتات هذه العائلة بالأوراق الشريطية، والسيقان الدقيقة القائمة والمكونة من سلاميات متصلة ببعضها البعض، وبالزهور المركبة على هيئة نورات تنضج مكونة السنابل أو الداليات، كما تتميز بالجذور الليفية التى يحمل الكثير منها ريزومات عقدية، ويتكاثر أغلبها بالأشطاء التى تكثر من ثمارها. والعائلة النجيلية هى من أكبر عائلات النبات ـ حيث تضم حوالى ٤٥٠ جنس وأكثر من سبعة آلاف نوع، ويمثل كل نوع من هذه الأنواع بلايين الأفراد، ولذلك تنتشر نباتات هذه العائلة على الأرض لتغطى مساحات هائلة منها، تفوق المساحات التى تغطيها أفراد أية عائلة نباتية أخرى، وتضم العائلة النجيلية أعشابًا حولية أو معمرة، وتتميز بسيقان سلامية، نحيلة فى العادة كما هو الحال فى نبات النجيل، ولذلك وهبها الله ـ تعالى ـ القدرة على التكاثر بالأشطاء حتى يقوى عودها على مقاومة هبات الريح، وعلى الانتصاب فوق قاعدتها، وعلى مضاعفة ثمراتها.

والأشطاء عبارة عن براعم تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق، كما هو الحال فى نبات القمح الذى تتكون جذوره من مجموع أساسى خارج من البذرة النابتة، ومجموع عرضى يخرج من البراعم الجانبية. وكذلك ساق نبات القمح يتميز إلى ساق أساسى يمثل السويقة المندفعة من داخل البذرة النابتة بعد تمام نموها، والعديد من السيقان العرضية التى تندفع من قاعدة الساق على هيئة عيدان قاعدية تخرج من البراعم الإبطية الموجودة عند العقد القاعدية المزدوجة، والنامية على قاعدة الساق الأساسى، ولذلك تمر النباتات التى تتكاثر بواسطة الأشطاء بمراحل الإنبات، وتكون البادرات، ثم مراحل خروج الأشطاء، ثم مراحل تكون الأزهار والثمار، التى تتضاعف أضعافا كثيرة بتكون الأشطاء والتى قد يصل عددها إلى أكثر من ثلاثين فى النبتة الواحدة. وبذلك ينبت من الحبة الواحدة مجموعة من السيقان الإضافية ـ الأشطاء ـ التى تحيط بالساق الأصلى مكونة حزمة مركبة من السيقان المتصلة ببعضها البعض فى مجموعة واحدة من الجذور الليفية التى خرجت من حبة قمح واحدة عند إنباتها، أى من أصل واحد، وهذا الأصل الواحد عبارة عن بادرة واحدة خارجة من بذرة واحدة، ولها مجموع جذرى واحد، وسرعان ما

تنمو الأشطاء حتى تصل إلى طول الساق الأصلية تقريبا، وتعطى سنابل مثلها، بحيث يكون لكل شطء سنبلته الخاصة به، وبذلك تنبت الحبة الواحدة من القمح مثلا عدة نباتات فى حزمة واحدة يحمل كل منها سنبلته أو سنابله. وسنبلة القمح سنبلة مركبة يحمل فيها المحور عدة سنابل أصغر ـ سنيبلات ـ، مرتبة فى تبادل على صفين متقابلين، وينتهى المحور عادة بسنيبلة طرفية. ويتكون فى كل سنيبلة حبتان إلى ثلاث حبات من القمح، وتحمل السنبلة فى المتوسط (١٥ إلى ٢٠) سنيبلة. وتخرج الأشطاء متلاحقة، واحدا تلو الآخر، ومن هنا كان التعبير هنا بالإفراد ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾، وكان وصف التتابع بحرف العطف (ف) الذى يدل على الترتيب مع التعقيب فقال الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿... كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ...﴾ [الفتح: ٢٩].

وبتكاثر الأشطاء فإن الساق الأصلى للنبات يحاط بعدد من السيقان الثانوية ـ الأشطاء ـ التى تنمو حوله على هيئة حزمة من الأعواد القائمة تزيد من سمك النبتة الأساسية، وتغلظ قطرها، وتمكنها من الاستواء منتصبة فوق مجموعها الجذرى فتزيد من تثبيتها فى مهب الريح بشغل مساحة أكبر من الوسط النامية فيه، وتضاعف من غلتها، وتبعد الأعشاب الضارة عنها وذلك بالحيلولة دون نمو تلك الأعشاب الضارة بالقرب من الساق الأساسية والمجموعة الجذرية. أما الفسائل ـ مثل فسائل النخل ـ فإنها تضعف الأم، وتقلل من العصارة الغذائية الواصلة إليها خاصة للأنواع التى تنمو على ارتفاع من جذع النخلة، بالإضافة إلى أنها تصبح مأوى للآفات والحشرات المختلفة.

ويعجب القارئ للقرآن الكريم على هذه الدقة البالغة فى اختيار لفظة (شطء) فى هذه الآية التى نحن بصددها؛ وذلك لأن الأشطاء ـ كما سبق وأشرنا ـ تختلف اختلافا كليا عن الفسائل، وعن الفروع، وعن غيرها من أنواع الخلفات النباتية الأخرى، ففى الوقت الذى لا تنفصل فيه الأشطاء عن نباتها الأصلى، تنفصل الفسائل وغيرها من أنواع الخلفات النباتية عن أصولها، كما يحدث فى حالة نخيل البلح. وقد أكدت البحوث فى علم النبات أن إخراج الأشطاء يحول دون سبات النبتة الأم والذى عادة ما يحدث أثناء تكون السنابل.

والآية الكريمة جاءت فى وصف قوة الترابط بين هذا الرسول الخاتم ﷺ وصحابته الكرام والتى تجسدت فى توادهم، وتعاطفهم، وتراحمهم،بدرجة لم يسبق لها مثيل فى علاقات الناس أفرادا وجماعات،فتشبههم بالأشطاء حول الأصل يشد بعضه بعضًا، ويتلقى الكل عن أصل واحد، ويتغذى من معين واحد، ولم تشبههم بالفسائل أو بالفروع لاختلاف دورها اختلافا كليا عن دور الأشطاء. ففى الوقت الذى تتغذى فيه الأشطاء كلها مع الساق الأصلى من مجموع جذرى واحد لا تنفصل عنه أبدا وإلا ماتت، فإن الفسائل التى تنمو من قاعدة النخلة تنفصل عن أصولها بإنتاج جذور جانبية عرضية لا تلبث أن تنمو لتصبح مصدرا أساسيا لتغذية الفسيلة التى تستقل فورا عن أصلها وتغدو صالحة للنقل بعيدا عنها لتبدأ حياة مستقلة تماما عن الأصل الذى جاءت منه. والمثل الذى يضع المصطفى ﷺ حيث بعث، وقام وحده بالدعوة إلى دين الله الكامل التام، فى مقام التشبيه بالزرع المبارك، ويضع أصحابه الذين آمنوا به وبرسالته من بعد، ويصفهم فى التفافهم حوله، وحبهم له، وإخلاصهم لشخصه الكريم، واعتمادهم - بعد الله تعالى - على هديه اعتمادا كاملا، يضعهم فى مقام التشبيه بالأشطاء النامية حول الزرع المبارك، ويصفهم بها فى وضع، لا يمكن أن يستخدم فيه تعبير الفرع أو الفسيلة التى سرعان ما تنفصل عن أصلها. وصحابة رسول الله ﷺ كانوا ألصق الناس به، وأقربهم إليه، وظلوا مرتبطين به طيلة حياته الشريفة، وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وما من أحد من الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم -، ولا من المسلمين عامة إلا ويدعو الله تعالى أن يحييه على سنة هذا الرسول الخاتم، وأن يميته على ملته، وأن يحشره فى زمرته، وأن يجمعه به فى الفردوس الأعلى إن شاء الله.

وليس أدل على ذلك من وصف عروة بن مسعود الثقفى - قبل إسلامه - حين وصف حب الصحابة لرسول الله ﷺ وقد جاءه موفدا من قريش يوم الحديبية، فعاد ليقول لهم: «يامعشر قريش،إنى جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا،فَوُوا رأيكم».

وعلى الرغم من التحريف الشديد الذى تعرضت له فى التراجم الموجودة بين أيدى نصارى اليوم لما يعرف باسم أناجيل كل من «متى» و«مرقص» و«لوقا» فإنه لا يزال بها مثل مشابه لما ذكره القرآن الكريم يصف الرسالة الخاتمة باسم «ملكوت الله» حيث تقول: «وقال الرب: ماذا يشبه ملكوت الله؟ وبماذا أشبهه؟ إنه يشبه بذرة خردل أخذها إنسان وألقاها فى بستانه، فنبتت وصارت شجرة عظيمة، وأوت طيور السماء فى أغصانها» (لوقا: ١٣: ١٨، ١٩).

وبعد اكتشاف مخطوطات نجع حمادى فى سنة ١٩٤٥م، وجد فيما أسموه «إنجيل توماس» تشبيه يكاد يقترب مما جاء فى القرآن الكريم حيث تقول ترجمة النص ما يلى:

«لا تسمحوا لمملكة السماء بالذبول، لأنها مثل فسيلة النخل التى سقطت ثمارها على الأرض من حولها، فأنبتت وأخرجت أوراقًا، وبعد إنباتها تسببت فى جفاف الأصل الذى جاءت منه، وعلى ذلك فإنها مع الثمار التى نمت من هذا الجذر الواحد...». وهذا الكلام الملىء بالأخطاء العلمية مترجم عن النص الإنجليزى المنقول عن النص اليونانى القديم، وتقول الترجمة الإنجليزية:

"Do not allow the kingdom of Heaven to wither; for it is like a palm shoot whose fruit has dropped down around it. They (i.e. the fallen fruits) put forth leaves, and after they had sprouted, they caused their womb to dry up. So, it is also with the fruit which had grown from this single root....".

(J.M.Robinson: The Naga Hammadi Library, E.J.Brill, Leiden, 1988).

وأترك هذا القدر من التشابه للقارئ الكريم دون تعليق، مع التأكيد على الفرق بين الشطأ» و«الفسيلة» والمترجمون للنصوص القديمة لم يكونوا يعرفون الفرق بينهما.

ويبقى ورود النص القرآنى بأن التشبيه موجود فى الإنجيل بالزرع الذى أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه فى مقام وصف موقف الصحابة الكرام حول رسول الله ﷺ من الالتفاف والحب والوفاء والولاء، والتأييد له، والفداء عنه، تأكيد على انطلاق المصدرين، من منبع واحد، حفظ أحدهما وهو القرآن الكريم، وحُرِّف الآخر، وهو «إنجيل توماس» أثناء النقل عن الأصل الذى ضاع مما

يجزم بأن القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله، ولا يمكن أن يكون صناعة بشرية؛ لأنه لم يكن لأحد من الخلق إدراك للفرق بين الشطء والفرع والفسيلة من قبل أربعة عشر قرنا، ولا من قبل قرن واحد من الزمان، وهذا مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبى والرسول الخاتم الذى تلقاه، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *